من سياسة الإبادة الفرنسية

محرقة غار الفراشيش 19 جوان 1845

الأستاذ غانم بودن، جامعة تيارت

الملخص:

تتطرق هذه الدراسة لإبراز وجه من أوجه معاناة الشعب الجزائري من السياسة الاستعمارية الفرنسية المسلطة عليهم منذ بداية الاحتلال، والتي اعتمدت على التدمير بالحديد والنار متجاوزة كل المفاهيم الأخلاقية للحروب، ومنافية لادّعاءات التحضّر التي تبنتها فرنسا زوراً، حيث سجّل قادة جيش الاحتلال سبقاً في الوحشية والفظاعة من خلال ما ارتكبوه من جرائم في حق الجزائريين العُزّل.

وتعتبر محرقة غار الفراشيش 19 جوان 1845 من أفظع ما ارتكب في العقد الثاني للاحتلال، حيث أُبيدت قبيلة أولاد رياح خنقاً وحرقاً بدم بارد من قبل العقيد بيليسيي (Péllissier)بعد أن تحصّنت بكهوف الظهرة هروبا من سياسة نزع السلاح التي طبقتها سلطات الاحتلال لإخماد نار المقاومة المشتعلة في كل أنحاء الوطن، كما تبرز هذه الدراسة الإجماع الفرنسي على إبادة الإنسان الجزائري لتثبيت الاحتلال وتوسيع رقعته من خلال مساندة وزارة الحربية والصحافة الاستعمارية في باريس لقادة جيش الاحتلال في جرائمهم ضد الجزائريين، والدفاع عنهم، وتبرير تجاوزاتهم من خلال مبدأ الغاية تبرر الوسيلة.

الكلمات المفتاحية: السياسة الاستعمارية، المحرقة، الإبادة، المقاومة، الظهرة.

Abstract:

This study addresses to highlight the aspect of the suffering of the Algerian people from the French colonial policy inflicted on them since the beginning of the occupation, which relied on the destruction of iron and fire, surpassing all moral concepts of wars, and contrary to the allegations of civilization adopted by France falsely, where the occupation army leaders scored a scoop in the brutality and horror of during their crimes against Algerians insulation.

The Holocaust GharAlfarachich June 19, 1845 of the worst committed in the second decade of the occupation, which wiped out the tribe of OuledRayah strangled and burned to death in cold blood by Colonel Péllissier after being holed caves Dahra escape disarmament policy applied by the occupation authorities to put out the fire burning resistance in all parts of the country, as this study highlights the French consensus on the Algerian human annihilation to install the occupation and extend its territory by supporting the Ministry of war and the press colonial in Paris the leaders of the occupation army in crimes against Algerians, and defend them, and justify their excesses through the principle of the end justifies the means.

Keywords: Colonial policy, the Holocaust, genocide, resistance, Dahra.

مقدمة:

إن دخول الاستعمار الفرنسي إلى الجزائر سنة 1830 يعتبر جريمة في حد ذاته كونه أطاح بسيادة دولة وانتهك حقوق شعب في الحياة والحرية، وبعد توقيع معاهدة الاستسلام في 05 جويلية 1830 تكرّس الطابع الإجرامي للجيش الفرنسي بالجزائر، واستباح حقوق الجزائريين وأملاكهم ومعتقداتهم رغم العهود باحترامها. ومع توسع الجيش الفرنسي خارج العاصمة اصطدم بمقاومة شرسة نظمتها مختلف القبائل أعاقت تحركاته وصعّبت من مهامه في إخضاع كل الجزائر، ذلك أن الفرنسيين اعتقدوا أن سقوط العاصمة -مقر السلطة-مثّل سقوط كل مقاومة محتملة.

ولأجل التغلب على المقاومة الوطنية لجأ الجيش الفرنسي إلى حرب إبادة شاملة تجاوزت كل حدود الفظاعة والهمجية معتمدا على السلب والتخريب والمجازر ضد السكان العزل، والحرق والخنق، حيث دشن بذلك قادة جيش الاحتلال عهد الهولوكوست الذي مثل وجها آخر للحضارة الفرنسية من خلال محرقة أولاد صبيحة سنة 1844 في الشلف ومحرقة غار الفراشيش1845سنة بمنطقة الظهرة.

وسأخص هذه الورقة بدراسة محرقة غار الفراشيش التي أبيدت فيها قبيلة أولاد رياح بكهوف الظهرة بعد رفضها نزع السلاح وإعلان الخضوع للسلطة الاستعمارية، التي كانت تدخل في إطار سياسة بيجو في قمع المقاومة الوطنية في جبال الظهرة حيث كانت لا تزال مشتعلة بقيادة بومعزة رغم دفع الأمير عبدالقادر إلى الجنوب الغربي تحت تأثير الضغط العسكري الفرنسي، وذلك

بالتطرق لظروف منطقة الظهرة ودورها في حركة المقاومة الوطنية، وتأثيرها على السياسة الاستعمارية التي لم يتمكن قادتها من احتواء هذه المقاومة إلا باللجوء إلى أسلوب الإبادة لإنجاح سياسة التوسع الاستعماري.

1-الوضع العام في منطقة الظهرة قبل المحرقة:

عرفت الجزائر جبهات عديدة للمقاومة الوطنية التي عملت على محاولة وقف الزحف الاستعماري بعد سقوط العاصمة، وكانت أهمها مقاومة الأمير عبد القادر التي شملت مناطق واسعة من الوطن خاصة في الغرب والوسط أين عطلت المشروع الاستعماري، وأجبرت الحكومة الفرنسية على تغيير دائم لحكامها العامين في الجزائر لعجزهم عن إخمادها. وكان أكثرهم قسوة ووحشية المارشال بيجو[1] (le Marechal Bugeaud) الذي تولى الحكم في الجزائر من 1841 إلى 1847، وتميز عهده بكل ممقوت من أعمال الاستعمار الحديث[2] من خلال تطبيقه سياسة الأرض المحروقة لإجبار الجزائريين على الخضوع وعزلهم عن المقاومة، حيث سلك سياسة القهر والعنف، وسياسة حرب الإبادة تجاه المقاومة ممثلة عندئذ في الأمير عبد القادر، فعمل على تجريد كل القبائل من محاصيلها الزراعية وماشيتها، وتوسيع صلاحيات المكاتب العربية، كما أصدر أوامره بإباحة الحرائق وإتلاف الأرزاق وارتكاب المجازر، وتسليط العقوبات الجماعية،[3] ذلك أن بيجو وغيره من الفرنسيين كانوا يرون أن بقاء الأمير حرا جعل الوطنية العربية ترفض التنحي، لأنه يجسد مائة قبيلة، أمة، تقاليد، دين، عائلة، عرق كامل يتنفس به ولن يسقط إلا معه،[4] كما كانوا يرون أن أنسب شيء لتثبيت الأوربيين بالجزائر وتمكين الاستيلاء عليها لا يتم إلا من خلال تدمير الجزائريين، وهذا التدمير يبقى هو الإبادة فقط.[5]

وقد أدت سياسة بيجو إلى انحسار مقاومة أين لاحقته سلطات الاحتلال وتدخلت في المغرب عسكريا في معركة إيسلي1844[6] التي كانت ضربا للأمير،[7] وما إن حلت سنة 1845 حتى وجهت فرنسا أنظارها إلى الجزائر، نحو نجاح ومهارة المارشال بيجو الذي -في نظرهم- أنجز الغزو، وأخذ الزمالة، وقوّض قوة الأمير، وكرّس السيادة الفرنسية بنصر إيسلي، ومع ذلك كانت ثورات منعزلة تندلع في مختلف المناطق[8] تعبر عن موقف جماعي لرفض الوجود الاستعماري، ورغم

معاهدة لالامغنية سنة 1845 التي حجزت الأمير في وسط المغرب فقد بقي الهيجان في الجزائر بدعوة من المرابطين، ولأجل قيام ثورة كانت الحاجة إلى شرارة، وفي غياب الأمير كان بومعزة[9] هو من أعطى الانطلاقة لهذه الثورة،[10]التي عُرفت بانتفاضة الظهرة[11] سنة 1845 التي أعادت الأمل بالنّصر على العدو، ولكنها كانت قصيرة التأثير،[12] وقد دأب الاستعمار على التقليل من قيمة الثورات الوطنية بتسميتها بالانتفاضات والتمردات.

وتفيد المصادر الفرنسية أنه مع بداية سنة 1845 انتشر عدة مرابطين في البلاد ينادون بطرد الفرنسيين، ويعددون جرائمهم مبشرين بمجيء شريف من أصل الحسن يظهر خلف النهر ويحارب الفرنسيين بتجنيد أبناء الظهرة،[13]وقد عُرفت هذه الانتفاضة عند الفرنسيين بانتفاضة الطرق الصوفية،[14] شاركت فيها على الخصوص القادرية، والرحمانية، والدرقاوية، والطيبية وفروعها،[15] وبومعزة من أتباع الطريقة الطيبية التي تنسب إلى الطيب الوزاني، وكان بومعزة الذي اعتزل لمدة طويلة في كهوف الظهرة قد بدأ بإثارة الجزائريين في الشلف وحشدهم حيث رفع راية الثورة انطلاقا من قبائل أولاد يونس على ساحل البحر،[16]وجال في القبائل داعيا الأهالي لأجل الجهاد المقدس،[17] وعندما عُرف واشتهر أخذ اسم الشريف وشكل مجموعة من الأنصار[18] أعلن بها الثورة في الظهرة، فهاجم قايد مديونة المدعو الحاج صدوك، وسلب القبيلة بعد أن قتل شيخها ورماه في دوار بلقاسم أحد أعوان فرنسا،[19] وفي ربيع 1845 قتل بعض المعمرين، ونهب القبائل المعاندة، وجمع في وقت قصير أكثر من (6000) مناصر مسلح،[20] وفي 20 أفريل 1845 هجم على مفرزة في تنس، وجرح أربع أشخاص، وأخذ خيام المفرزة، وهاجم قطارايرافقه (560) جندي فرنسي.[21]

وقد انتشرت الثورة بسرعة مخيفة ولأجل احتوائها استلزم الأمر تحريك عدة فيالق عسكرية، لكنها لم تحقق نتيجة ولجأ بومعزة إلى الظهرة،[22] وكثرت العمليات العسكرية بين تنس ومصب نهر الشلف، حيث هجم الثوار على مخيم للعمال وأخذوا ما فيه، وأصبح الجنود الفرنسيون لا يحصلون على يوم للراحة يطاردون بلا توقف الثوار أين نجحوافي تهدئة الوضع قليلا في قبائل تنس، ووضع الثوار سلاحهم لكن رغم هذا بقيت الظهرة بعيدة عن الاستقرار خاصة أعاليها حيث تجمع الثوار

وشكلوا تهديدا خطيرا.[23]وقد شكل اختفاء بومعزة وظهوره مجددا عاملا مشجعا للقبائل والأنصار على الثورة رغم الحملات العسكرية الفرنسية الكبرى التي أجبرته فيما بعد على الانسحاب إلقبائل فليتة غير الخاضعة كلية للسلطة الفرنسية، واستقبل من قبل قبائل فليتة في ربيع 1845 بمنطقة مستغانم كرجل الساعة الذي سيخلص البلد من المسيحيين ويرميهم في البحر.[24]حيث نادت هذه القبائل بالجهاد الذي اتخذ حجما واسعا في كامل الجزائر،[25]

ولمواجهة خطر نار المقاومة المشتعلة قاد العقيد سانت أرنو (Saint Arnaud) حملة في ربيع 1845 على الضفة اليمنى لنهر الشلف، وبدأ بمتابعته وقتاله في قبيلة أولاد يونس التي شهدت الخطوات الأولى لدعوته،[26] وتمكن من قتل (200) رجل من أتباع بومعزة الذي اختفى لوقت بعد التضييق عليه من قبل الأغا الحاج أحمد الذي قتل كل مرافقيه باستثناء فارسين وبومعزة،[27] وقام سانت أرنو بعدة معارك أثناء ملاحقته الثوار في كل مكان مستخدما قوات مهمة خوفا من إعطاء متسع من الوقت لعبد القادر ثاني –حسب تعبير قائد فيلق القناصة كانروبير (Canrobert)في رسالة مؤرخة في 1845/06/05- ينشئ قوة قد لا تكون كبيرة جدا ولكنها ليست أقل إخافة،[28] فالفرنسيون كانوا يرون في ثورة بومعزة امتدادا لمقاومة الأمير عبد القادر التي أرهقتهم كثيرا، فقد وردفي رسالة لسانت أرنو مؤرخة في 06 أوت 1845:"كان من البديهي إذا تركنا بومعزة في البلد سوف ينتهي بنا الحال إلى مجيء الأمير عبد القادر، وكان بومعزة يشيع في العرب أنه يعمل لصالح الأمير، وكان محتالا وجريئا، واستغل جيدا التعصب العربي".[29]

وكانت السلطات الاستعمارية قد لجأت سنة 1845 إلى وسيلة جديدة مع الجزائريين وهي نزع سلاحهم، وكان سانت أرنو هو مدشن أسلوب نزع السلاح خاصة وأن العرب محاربون.[30] وفي 09 ماي 1845 جاء الجنرال بيجو إلى الونشريس وقام بنزع سلاح مختلف قبائل المنطقة، ولم تبق إلا قبائل واد الشلف لم تدخل تحت السيطرة، فقامت عدة معارك انتهت بنزع سلاحها، وتمكن سانت أرنو من تبديد عدة قبائل في 21 ماي في واد سيدي بلعابد، بينما عاد بومعزة الملاحق إلى أولاد يونسمنطلقه الأول.[31]

2–أولاد رياح ومقاومة نزع السلاح:

تعتبر قبيلة أولاد رياح من القبائل المحاربة، مستقرة في منطقة الظهرة على سلسلة جبلية بين الشلف والبحر، وتظهر أرض القبيلة في شكل متاهة مقسمة لمسالك كثيرة بواسطة الحجارة، الجبال والحفر التي تضم كهوفا تشبه كهوف قبيلة صبيحة ولكن مدخلها أصعب،(32) وعلى غرار بقية القبائل التحقت بثورة بومعزة،(33) وكان بيجو قبل عودته إلى مقر قيادته بالعاصمة في 12 جوان 1845 من حملة نزع سلاح القبائل الثائرة قد أمر ضباطه بمعاقبة القبائل التي انضمت إلى بومعزة، فتشكلت ثلاثة فيالق يقودها العقيد سانت أرنو(Saint Arnaud)، والعقيد لاميرو(Lamirault)، والعقيد بيليسيي(Péllissier)، وغزت هذه الفيالق الظهرة ولاحقت بومعزة؛ الفرقتان الأوليان أخضعتا القبائل المتمردة (الثائرة)، بينما فرقة بيليسيي ستقوم بعملية فظيعة،(34) وهي إبادة قبيلة أولاد رياح حرقاً وخنقاً.

وقادبيليسييقوة قُدّرت بـ (2254) جندي من مختلفالتشكيلات العسكرية مهمتها إخضاع الأهالي الثائرين وتجريدهم من السلاح،(35)فغزا قبيلة أولاد رياح وحطم أملاكها وأحرق ما وجد منها طبقا لسياسة الأرض المحروقة التي جاء بها سيّده بيجو، وقد فرت القبيلة وهي تحارب ناحية غار محصن نوعا ما يسمى بغار الفراشيش،(36) وقد وجدهم أقل انقيادا لنزع السلاح عكس جيرانهم(37) فتوغلوا في وسط الجبال، ورفضوا الاعتراف بالسلطة الفرنسية، ولم يجرؤ شخص على ملاحقتهم في المتاهات الطبيعية التي تحمي إقامتهم وهم من يعرف المخارج، فحاول بيليسيي المغامرة، وعند اقترابه لجأ الثوار بعائلاتهم وقطعانهم إلى كهوف الفراشيش التي أمنت لهم مخبأً حصيناً(38) في 17 جوان 1845 بعدما أرهقتهم ملاحقة الجيش الفرنسي،(39) وقد احتمت القبيلة بغار الفراشيش، وكان عدد أفرادها أكثر من (1000) شخص بحيواناتهم، ويطلق العدو على أفراد القبيلة اسم الثوار بما في ذلك الأطفال والحيوانات، وتذكر مصادر الفرنسيين أن الغار عبارة عن حصن طبيعي، فإذا تمكن الثوار المسلحون من مدخليه فإنهم يظلون أسياد الموقف.(40)

3-وصف مغارات الفراشيش:

تتواجد بالسلسلة الجبلية لمنطقة الظهرة، وتسمى بكهوف الظهرة، وتقع بالضبط في جبال تاوسنان(Taousnan) على بعد (30 كم) شرق مصب الشلف، حفرت بمياه الينابيع في

أرضكلسية تمتد في شكل رواق عميق بطول (180 م)،[41] وقد ورد وصف دقيق لها في جريدة جورنال دي ديبا (Journal des débats) كما يلي:[42]

"تأخذ شكل حصن طبيعي آمن، وتحتوي على مغارتين: الأولى أساسية لها مدخلين، والثانية لها مدخل واحد، وهذه المخابئ الأرضية مغلقة بالمياه السائلة، ويسمى الجزء الأعلى بالقنطرة لأنه تشكل جسرا هائلا، وتدخلها مياه السيول من فتحة متسعة تأخذ مسار (320 م) وتخرج من الشرق على مسار (70 م) أسفل سدٍّ لتعود إلى واد الفراشيش من معبر آخر بـ(100 م)، ويشكل مدخل ومخرج المياه تحت القنطرة أبوابا للمغارة الكبرى التي يبلغ طولها (320 م) في شكل رواق طويل على (02 م) كمعدل عرض، والارتفاع المتوسط هو (04 م)، وتضم بعض الغرف أكبرها تبلغ (16 م) طولا، و(08 م) عرضا، ويتشكل السطح من كتل كلسية مع وجود منحدرات ما بين (02 م) إلى (05 م) إرتفاع أين تجعل الحركة داخل المغارة صعبة وخطيرة، وعلى بعد (80 م) إلى الغرب توجد فتحة ثانية، إنها المغارة الأخرى."

وقد تشكلت هذه المغارات بواسطة السيول الغزيرة التي حفرت قنوات أرضية تستغلها مختلف القبائل في طمر مؤنها وعدتها وممتلكاتها، كما تلجأ إليها مع حيواناتها،[43] ويفيد الوصف أن المغارات حصينة تؤمن الحماية للاجئيها، وتضمن لهم السيطرة على الموقف أثناء الهجوم بترصد كل من يدخل إليها، كما أنها لا تسمح بدخول قوات ووسائل هجوم منظمة بحكم ضيقها.

4-محاصرة قبيلة أولاد رياح:

لما لجأت قبيلة أولاد رياح إلى غار الفراشيش في جبال الظهرة وسط الغابات الكثيفة كانت مستعدة لحصار قد يطول ويرهق جيش الاحتلال،لكنها لم تضع في حساباتها الطبيعة الدموية والوحشية لقادته الذين يلجأون إلى أفظع الوسائل في حروبهم.

في 18 جوان 1845 أصر بيليسيي على إخضاع أولاد رياح فقاد فيلقان للمشاة، وسرية للخيالة، ونصف مجموعة من جنود المدفعية، ومفرزة لجنود سلاح الهندسة، وفرقة إسعاف واتجه نحو كهوف غار الفراشيش وحاصره من كل النواحي،[44] وطالب القبيلة بالاستسلام فأجابته

بالرصاص.[45] وتشير بعض المصادر الفرنسية أن بيليسيي أرسل رسلاً إلى أولاد رياح يعدهم بالأمان وحرية أملاكهم لكنهم رفضوا وقتلوا واحدا من الرسل فقرر حرقهم، وكانت اللهب جاهزة،[46] فقام العقيد الشجاع رافع راية الحضارة والإنسانية بجلب أكداس الحطب وأحاط بها الغار، وأخذ في إيقادها عند المداخل ليجبر القبيلة على الاستسلام أو الموت اختناقا الدخان،[47] فبدأ يرمي القذائف على الغرفة الموجودة أعلى المغارة،[48] مقلدا العقيد كافينياك[49] (Cavaignac) -في الهولوكوست الذي سبقوافيه الألمان -الذي قام بحرق قبيلة بني صبيح[50] بالشلف سنة 1844 عندما رفضت الخضوع للسلطة الاستعمارية، وكان قرار الحرق قد اتخذ من قبل مما يعكس الطبيعة الوحشية لبيليسيي وقائده بيجو الذي أمره في 11 جوان 1845 بحرقهم إذا لم يعلنوا خضوعهم ويسلموا سلاحهم فكتب إليه:"إذا لجأ هؤلاء الأوغاد إلى كهوفهم، افعل مثل كافينياك في صبيحة، شدد في حرقهم مثل الثعالب"[51]

Si ces gredins se retirent dans leurs cavernes, imitez Cavaignac au Sbehas, " fumez-les à outrance comme des renards"

وقد ادّعى بيليسيي أنه أُجبر على فعل ذلك لأن ضيق المغارة سيؤدي إلى موت كل رجاله قبل دخولهم إليها،[52] وفي الليل تمركز الجنود في مواقعهم لإفشال أي محاولة للهرب وضاعف العقيد النار، وكان الليل مقمرا مما سهّل عملية المراقبة، ومع ذلك فرَّ عربي من الغار عن طريق الوادي المتصل به بعد أن أصيب برصاصة، ووصل إلى قائد الزريفة سيدي العريبي ليخبره أن القبيلة في حاجة إلى الماء.[53]

وفي اليوم الثاني 19 جوان تواصلت النيران على مداخل المغارات، ووصل شيخ الزريفة إلى قائد الجيش كرسول يمثل أولاد رياح لتبدأ محادثات شكلية عرض فيها بيليسيي الأمان، وتعهد باحترام حريتهم وأملاكهم، ولأن الفرنسيين مصممون على ارتكاب المحرقة راحوا يبررون فشل المحادثات مع الثوار بأن هدفها لم يكن إلا كسب الوقت والسماح لهم بإدخال بعض القطعان التي بقيت خارجا إلى المغارة،[54] وهذا رغم وجود مختلف وحدات الجيش الفرنسي التي تحيط بالمغارة ومنطقة الظهرة كلها.

تفنن بيليسيي في تكويم الحطب عند مداخل الغار طوال اليوم الثاني، وأصر على الموت الزؤام خلال ربع ساعة أو الاستسلام، وضاعف عملية التدخين في مداخل الغار"عملية تحميص العرب وشوائهم على النار بدم بارد" واستمرت النار في الليلة الثانية،[55] حيث كانت النّار تُدفع بكثرة من الساعة الثانية والربع زوالا إلى غاية الساعة الثامنة مساءً،[56] مما يعكس روحا قاسية كانت تستمتع بآلام الجزائريين المحتضرين، فقد كانت أكداس الحطب التي تُرمى كالطعم الجاذب لإخراج الجزائريين من المغارة بينما ترصد الجنود، وحاصروا كل الطرق في انتظار خروج العدو مدفوعا بالنار، لكن بعد ساعات لم يظهر عربي، فقط كان هناك صياح وتأوُّه يدوي في المكان، ثم ساد الصمت.[57] وتوقفت كل حركة داخل المغارة دليلا على موت من فيها، فقد وقع تدافع كبير جرّاء الاختناق بحثا عن هواء نظيف من طرف القبيلة والحيوانات الهائجة التي رفست بأقدامها كل من وجدته أمامها.

وقبل طلوع نهار 20 جوان بنحو ساعة وقع انفجار مهول في قلب الغار، وكان ذلك إعلانا باختناق ما يزيد عن ألف شخص في ذلك الغار الذي تحاصره النيران والدخان منذ يومين وليلتين،[58] وقد وصف كاميل روسي (Camille Rousset) هذا المشهد الرهيب بالعبارات التالية:" كان الحريق قد وصل إلى أمتعة اللاجئين، وفي الليل خُيّل للجنود أنهم يسمعون ضجة لا تكاد تبين، وصيحات خافتة، ثم ساد صمت عميق، وفي وقت مبكر من الصباح استطاع بعض الرجال أن يخرجوا من المغارات فسقطوا مخنوقي الأنفاس أمام الحرس، وكان الدخان الذي انتشر في المغارات كثيفا مؤذيا إلى حد أن الجنود لم يتمكنوا في بداية الأمر من الدخول"[59]

ويضيف:" على أننا كنا بين الحين والآخر نرى مخلوقات بشرية مشوهة تخرج من المغارات زحفا على البطون فيحاول آخرون ممن بقي متمسكا بمبادئه إلى آخر رمق أن يمنعوهم من الخروج، وحين تمكنا في آخر الأمر من زيارة ذلك الجحيم بعد أن خمدت فيه النيران عددنا أكثر من خمسمائة من الضحايا ما بين رجال ونساء وأطفال، وقد أصيب جميع الحاضرين بوجوم شديد لهول الفاجعة"[60]

وبعد انطفاء النار دخل الجنود المغارات فوجدوا مظهرا رهيبا (800) جثة ملقاة على الأرض، نساء، أطفال، شيوخ، آلاف الأغنام والماعز اختنقت مثل مالكيها، أمهات متصلبات

متشنجات على الجدران رافعات لأبنائهن المختنقين نحو شقٍّ لاستنشاق هواء نظيف، وفي الأرض شيوخ وفتيان ممدين،[61] كما وصف مصدر آخر المشهد:" صمت محزن ومتقطع لحشرجات بعيدة، في المدخل حيوانات غُطيت رؤوسها لكي لا ترى و لا تجأر مرمية محروقة، وهناك أم مختنقة في وقت كانت تدافع عن ابنها ضد هياج ثور، وهناك جثث عارية يخرج الدم من أفواه أصحابها، أطفال رضّع اختنقوا مع المؤن، وآخرون اختنقوا تحت ملابس أمهاتهم، وفي الأخير كتل من اللحم الكثير تم الدّوس عليها أثناء المعركة الداخلية شكلت نوعا من العصيدة البشرية، وقبيلة أولاد رياح لم تعد موجودة".[62]

إنها معركة في غاية الخسة والفظاعة لم تُطلق فيها ولو رصاصة أراد بها صاحبها شرف إخضاع القبائل الثائرة فخلّف بعمله المخزي (780) جثة من الضحايا البريئة بين رجال، ونساء، وأطفال مفككة الأوصال، ممزقة الأشلاء تحت أقدام الثيران والحيوانات التي دفعتها غريزتها نحو الباب فداست كل شيء ثم لقيت حتفها، ومن أفظع ما شُوهد داخل الكهف رجل أسلم الروح وهو ممسكٌ بقرن أحد الثيران دفاعا عن امرأته وابنه، وقد مات الرجل والمرأة والولد والثور وهم على ذلك الوضع.[63]

وقد اختلفت المصادر الفرنسية حول عدد الضحايا فجريدة جورنال دي ديبا (Journal des débats) كتبت أن الضباط عدوا (499)جثة في المغارة الكبرى، و(30) جثة في المغارة الأخرى،[64] بينما يتفق البعض أن عدد المختنقين تجاوز الألف، وبعضهم جعل الرقم (750) جثة، وبعضهم ألفا، وبعضهم (800)، أما التقرير الرسمي فقد تحدث عن أكثر من (500) شخص، ولما قام بيليسيي بنفسه بعملية العد فإذا بالرقم وصل إلى (600)، ولاحظ أحد الكتاب أن هذا الرقم لم يأخذ في الحسبان الأطفال الرضع الذين كانوا ملتصقين بأثداء أمهاتهم، أو داخل ثيابهن، وأُهمل عدد الجثث التي كانت متراكمة فوق بعضها،[65] ولو افترضنا أن عدد اللاجئين إلى المغارة كان ألفاً، وبالنظر إلى أنه لم يخرج منها بعد الحرق إلا حوالي ستين (60) شخصا مات أربعون منهم في الحال، وبقي عشرة (10) في حالة خطيرة، وعشرة (10) فقط استطاعوا التغلب على الموت[66] فإن العدد يفوق (980) ضحية.

5- صدى المحرقة في الأوساط الاستعمارية:

لا شك أن ضباط جيش الاحتلال كانوا يعملون بحرية مطلقة في الجزائر، وارتكبوا مجازر فظيعة ضد المقاومة الوطنية أو السكان العزل كقبيلة العوفية بوادي الحراش 1832 التي ذُبحت عن آخرها ظلما (70) ضحية بأمر من القائد العام لجيش الاحتلال الدوق روفيقو (Duc de Rovigo)، لكن أن يتجاوز القمع والتنكيل أعراف الحروب ويصل إلى إحراق الناس وهم أحياء فهذا أمر يفوق حدود الوحشية، فقد طبق بيليسيي وقبله كافينياك بعام لأول مرة طريقة تشبه الإعدام في غرف الغاز مع الاستعاضة عن غرف الاختناق بالمغارات، وعن الغاز بدخان النار التي كانت توقد عدة ساعات بل عدة أيام.(67)

وقد أدت هذه المأساة الفظيعة في فرنسا إلى شعور بالاشمئزاز والنفور،(68) كما أحدث هذا الإعدام الرهيب ذهولا كبيرا وإدانة لقيادة العقيد بيليسيي من طرف الغرفتين والصحافة التي وصفت الحرب بالوحشية وغير المشرفة للجيش،(69) ووجدت المعارضة في هذا الحادث فرصة للهجوم على الحكومة، وصرخت الجرائد بكل مقت وكره معلّقةً أن بيليسيي يعمل بعيدا عن العدالة،(70) فهي تنتقد عمل بيليسيي وغيره من الضباط دون أن ترفض الاحتلال، وتنظر بعين النقد للسياسة الاستعمارية في الجزائر دون أن تنظر إلى واقع الجزائر المستعمرة. أما وزير الحربية المارشال سولت (Soult) الذي تتبعه الجزائر إداريا فقد حاول إخفاء حجم الجريمة بالتكتم عن التقرير الذي جاءه من بيليسيي(71) لكن أمره فُضح فاستنكر وتأسف عليه أمام غرفة باريس لكنه قال فيما بعد: "إن للحرب ضروراتها، وربما لو كنت في مكان العقيد لم أكن لأتصرف بشكل مختلف"(72) مما يعكس الرغبة المشتركة لدى ضباط جيش الاحتلال في إبادة العنصر الوطني متجاوزين كل المفاهيم الأخلاقية والإنسانية.

أما بيجو فقد بقي متمسكا أمام الرأي العام حيث أيّد هذا العمل الفظيع، وتحمل كقائد عام كل المسؤولية،(73) ودافع عن بيليسيي بحرارة، وانتهى بتحقيق انتصار على المعارضة، وشيئاً فشيئاً انتهى الهيجان، لكن بقيت ميزة القسوة والبربرية تضغط على ذاكرة العقيد.(74) وفي رسالة وجهها بيجو إلى سولت في 14 جويلية 1845 بيّن أن هذه الوسيلة المتطرفة لم يلجأ إليها

بيليسييإلا بعد أن استوفى كل مصادر التفاهم، ومن متطلبات الحرب استخدام كل الوسائل الحازمة مهما كانت لتحقيق الهدف،[75] والملاحظ أن في عرف بيجو وضباطه طلب الاستسلام أو الموت هي أهم وسائل التفاهم، وبعد أن شرح بيجو طبيعة تضاريس الظهرة وكهوفها ذكّر وزيره بما قام به كافينياك في السنة الماضية مع قبيلة صبيحة عندما حاول استخدام الوسائل العادية فخسر ضابطا، فأضرم النار في المغارة التي لجأت إليها، وقال بأن الصرامة التي يستعملها هو وضباطه ستكون فعالة وتضمن احتلالا سهلا، واستقرارا طويلا، وأن الضرب بقوة مرة واحدة خير من الضرب كثيرا.[76]هذه هي عقيدة ضباط جيش الاحتلال يبررون ارتكابهم لجريمة بارتكاب جريمة أخرى قبلها وكأنهم يتنافسون في ذلك للفتك بأكبر عدد ممكن من السكان.[77]

أما صحيفة الديبا (Journal des débats) فقد امتدحت ضباط الجيش على عملهم في الجزائر،[78] وروت أحداث محرقة الفراشيش وفق الرؤية الاستعمارية، وكتبت بأنها ستُوقف كل الكلام الساخط على ضباط الجيش الإفريقي الذين بذلوا جهدا لأجل منع هذه الكارثة الفظيعة بدون فائدة، والتي تُصنّف ضمن الأعمال الوحشية في الحرب،[79] وحمّلت قبيلة أولاد رياح مسؤولية المحرقة حيث برّرت أنها كانت الحل الوحيد الذي تركته أمام بيليسيي فكتبت:" كانت ثلاث وسائل أمامنا لجلب العدو لمصالحةٍ؛ إما الهجوم بقوة عسكرية، أو الحصار، أو حرقهم لإجبارهم على الخروج من المغارة، أما الهجوم فيؤدي إلى خسائر كبيرة من الفرنسيين فتم إبعاد هذا الحل، وأما الحصار فلم يكن قابل للتطبيق بحكم المؤن التي تمتلكها القبيلة وتجعلها تقاوم الحصار، فلم يبق إلا الحل الثالث وهو استعمال النار في مدخل المغارات لنجبر الثوار على الخروج مثل المجاعة في مدينة محاصرة"،[80] وأهملت الجريدة لنظرتها الاستعمارية في تفسير الأحداث أن الحصار كان وسيلة مهمة، وأن بيليسيي كان بإمكانه أن ينتظر بعض الوقت لأن القبيلة كانت ستخرج لا محالة مادامت في حاجة إلى ماء.[81]

وتدّعي الكتابات الفرنسية أن بيليسيي لما استعمل النار في مدخل المغارات أراد إخافة القبيلة لكن الوقت كان متأخرا فحلت الكارثة،[82] وهل تكون الإخافة بإشعال النار لمدة أربع وعشرين ساعة؟ إن بيليسيي فعل فعلته بدم بارد وبتعمد واضح لأن عملية التدخين كانت تجري

بانتظام وتفنن.[83] وبموافقة بيجو الذي دافع عن بيليسيي:"إن العقيد اعتقد بأن اللّهب التي رماها ستخرجهم، وفاوضهم لمدة خمس ساعات، وقتلوا مفاوضا فواصل النار حتى تلاشى أولاد رياح بعنادهم القاتل."[84] ولم يذكر بيجو أنه أعطاه الأمر بحرقهم في مغارتهم كالثعالب في 11 جوان 1845 إذا رفضوا الخضوع. كم ادّعت بعض المصادر الفرنسية أن المحرقة كانت حادثا غير متوقع وغير مقصود تسبب في موت عدد من الضحايا، كان العقيد أول المتأثرين والمتأسفين عليه،[85] وحاولت نفس المصادر تبرئة بيليسيي معلّلةً سبب اشتعال النار في المغارة بدوران الهواء بسرعة مما أدى لكثرة دخانها فجزعت الحيوانات ودهست حُرّاسها، وأخذ الأطفال والنساء في الصراخ والجري في كل مكان يطلبون الخضوع الذي رفضه الرجال، وفي هذا الوضع بدأ الموت يعمل عمله، وأضافت أن وراء الخشونة والحزم فإن بيليسيي يملك قلبا نبيلا.[86]

كما التمست بعض المصادر العذر لبيليسيي على جرمه الفظيع وكتبت عنه وعن كافينياك:"إذا كان هؤلاء الضباط لم يجدوا في قلوبهم شيئا يمنعهم من الوصول إلى آخر حدٍّ تسمح به القوانين، فمن المحتمل أن الفظاظة المرتكبة من طرف الثوار لا تسمح بالعفو"[87] فأصبحت مقاومة الخضوع وسياسة نزع السلاح جريمة تفوق قدرة الغزاة على العفو، وتفوق حتى جرائمهم. وبعد أن سردت الديبا (Journal des débats) روايتها للحادثة المشؤومة لغار الفراشيشتساءلت:"أمام هذا الحادث المشؤوم، والذي جعلته الظروف لا مناص منه، نحن نطالب إذا كانت هناك وسيلة لتجنب هذا القرار الشنيع الذي تأسفنا على نهايته"[88]

خاتمة:

إن هذه المحرقة تعكس طبيعة جيش الاحتلال الذي ادّعى قادته أنهم ينشرون الحضارة، بأنه جيش همجي لا تحكمه أخلاق ولا ضوابط ولا شرف، كما تعكس اتساع وقوة المقاومة الوطنية في كامل الجزائر وخاصة منطقة الظهرة التي قاومت بشدة الغزو الاستعماري وعارضت نزع السلاح حيث أجبرت المارشال بيجو على الخروج من العاصمة مقر قيادته لأجل قمعها وإخضاعها ونزع سلاحها، كما تبيّن الطبيعة الحربية لقبيلة أولاد رياح التي رفضت نزع السلاح والاعتراف بالسلطة الاستعمارية، وفضّلت الموت حرقا وخنقا على الاستسلام للعدو والتنازل عن شموخها وإبائها.

كما تعكس الجريمة إجماع الحكومة الفرنسية على مساندة جيش الاحتلال في وحشيته وقمعه للمقاومة الوطنية حيث جنّدت السلطات الاستعمارية صحافتها لتبرير الجريمة وتحميل الضحايا كامل المسؤولية، لأنهم عاندوا أوامر الخضوع ورفضوا الاستسلام مما جعل هؤلاء الضباط في منأى عن العقاب حتى أن بيليسيي رُقّي إلى جنرال ثم مارشال وخلال الستينات أصبح حاكما عاما على الجزائر.

الهوامش:

1-Thmas Robert Bugeaud ولد في Limoges في 1784/10/15 وتوفي بباريس في1849/06/10، مارشال فرنسا ودوق ايسلي.أنظر: (C.H. DIDEVILLE:Le Marechal Bugeaud d'aprés sa correspondanceintime et des documents inédits 1784-1849,t 3,Librairie de Firmin-Didot,Paris,1882,p 1.)

حاز لقب دوق ايسلي بعد انتصاره في المغرب الأقصى 1844، تولى الحكم في الجزائر بين 1841-1847 اتبع سياسة القهر ضد الجزائريين، صاحب سياسة السيف والمحراث المعتمدة على الاستيطان واغتصاب الأراضي، وبأسلوب الإبادة تجاه المقاومة الوطنية أحرز على لقب قاهر الجزائر وعلى عصا المارشالية بعد محرقة غار الفراشيش.أنظر: أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية(1830-1900)،ج1،دار الغرب الإسلامي،بيروت،لبنان،ط1، 1992،ص 227.

2-نفسه: ص 195.

3-نفسه: ص 217.

4-Léonce ANDRE:les compagnes d'Afrique,récits populaires et anectodiques,Paris,1868,p288.

5-Desjobert:l'Algérie en 1846,Guillaumin libraire-éditeur,Paris,1846,p16.

6- معركةإيسلي 14 أوت 1844 بالأراضي المغربية، انحزم فيها المغرب بقيادة محمد ابن السلطان عبد الرحمان أمام قوات المارشال بيجو الذي حاز على لقب دوق إيسلي بعد هذا النصر.

7-أبو القاسم سعد الله:المرجع السابق، ص218.

8-Derrecagaix:lemarechalPéllissier et les asphyxiés des grottes du Dahra,la revue hebdomadaire,t 7,juillet 1892,Paris,p 456.

9- تقول المصادر أنه من المغرب الأقصى وبالضبط من تارودانت، من أتباع الطريقة الطيبية بناحية وزان، و كان يصطحب معه معزة يشرب حليبها فسمي ببومعزة أما اسمه فهو محمد بن عبد الله،كان في نظر الفرنسيين نموذجا للمحارب المتعصب، حل بالجزائر سنة 1838 ونزل بناحية الشلف، بعد الضغط على الأمير عبد القادر بدأ بومعزة الجهاد واستخدم طريقة قتل المتعاونين مع الاستعمار كالقياد والأغاوات، تنقل بين 1845-1847 في نواحي عديدة من الجزائر: الظهرة، الشلف، فليتة، الونشريس والصحراء. جرح جرحا بليغا في واد قصى(Ksa) في 1846/03/15 وأجبر على التوقف بعد أن قتل معظم أنصاره، ثم فر إلى الصحراء وقام بإثارة سكان الزيبان في الجنوب القسنطيني خاصة أولاد جلال أين هزم في 1847/01/10، حيث عاد إلى الونشريس وأسر في الشلف 1847/04/13.أنظر:

(Ferdhugonnet:Français et Arabes en Algérie,FerdSartorius édit,Paris,1860,p221-222)

بعد هذا التاريخ سجن في فرنسا، وبعد إطلاق سراحه سنة 1849 توجه إلى المشرق العربي، وانخرط في الجيش العثماني في حرب القرم.للمزيدأنظر:أبو القاسم سعد الله:الحركة الوطنية الجزائرية(1830-1900)،ج1،دار الغرب الإسلامي،بيروت،لبنان،ط1992،1،ص 291-292.

10-Léonce ANDRE:Op .Cit,p 288.

11- الظهرة تقع بين البحر والشلف ومن تنس حتى مصب النهر بطول حوالي (200كم)، وعمق (80كم) أو أكثر، وهي من أغنى المناطق في إقليم الجزائر، تقطنها قبائل محاربة منها قبيلة أولاد رياح.أنظر:

Achille FILLIAS:Histoire de la conquête et de la colonisation de l'Algérie 1830-1860,Arnauld de Vresselibraire-éditeur,Paris, 1860,p 314.

12-أبو القاسم سعد الله:المرجع السابق، ص218.

13-Léonce ANDRE:Op .Cit,p 28.9

14- مدارس دينية تعبدية تعتمد المجاهدات والأذكار والزهد ونحوها في التقرب إلى الله، بدأت في الانتشار في الجزائر منذ القرن 16م وتوسعت في النصف الثاني من القرن 19م وبداية القرن 20م، أهمها القادرية، الشاذلية، الدرقاوية، الرحمانية، الستوسيةوالتيجانية، لعبت دورا بارزا في مواجهة الاستعمار بتغذية فكرة الجهاد وحافظت على التعليم العربي الإسلامي.أنظر:نور الدين أبو لحية: جمعية العلماء المسلمين والطرق الصوفية وتاريخ العلاقة بينهما، دار علي بن زيد للطباعة والنشر،بسكرة،الجزائر،ط 1، 2015،ص74.

15-أبو القاسم سعد الله:المرجع السابق، ص228.

16-Berard:Lesdeux villes de Tenez et Boumaaza,Challamel Ainé libraire-commissionnaire, Paris,1864,p 34.

17-Ferdhugonnet:Op .Cit,p221.

18-Derrecagaix:opcit,p457.

19-Achille Fillias:Op .Cit,p 312.

20-Ferdhugonnet:opcit,p221.

21-C.H. DIDEVILLE:Op .Cit,p 8.

22-Achille Fillias:Op .Cit,p313-314.

23-Bugeaud et autres:compagnes d'Afrique 1835-1848,lettres adressées au maréchal Decastellane,Librairie Plon Nourrit imprimeurs-éditeurs,Paris,1898,p 408.

24-Berard:Op .Cit,p 76.

25-Charles Richard:Etude sur l'insurrection du Dahra,bulletin trimestriel de la société des sciences,belles,lettres et arts du département du VAR,n 3/4,Toulon,1864,p 232-233.

26-M. BLANC:Souvenirs d'un vieux zouave,t 2,2 édition,Paris,1880,p 151.

27-C.H. Dideville:Op .Cit,p14-15.

28-Bugeaud et autres:Op .Cit,p408-409.

29-SAINT-Beuve:Lettres du maréchal Saint Arnaud 1832-1854,t 2,3 édition, Paris,1864,p 25.

30-C.H. Dideville:Op .Cit,p15.

31-Péllissier de REYNAUD:AnnalesAlgériennes,t 3,Librairie militaire Dumaine éditeur de l'empereur,Paris,1854,p 166.
32-M. BLANC:Op .Cit,p 154.
33-Derrecagaix:Op .Cit,p458.
34-Achille Fillias:Op .Cit,p314.
35-Derrecagaix:Op .Cit,p458.
36-أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص228.
37-Péllissier de Reynaud:Op .Cit,p167.
38-Achille Fillias:Op .Cit,p314.
39-Derrecagaix:Op .Cit,p459.
40-أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص228.
41-Derrecagaix:Op .Cit,p460.
42-Journal des débats: 27 juillet 1845.
43-Léonce Andre:Op .Cit,p 292.
44-Journal des débats: 27 juillet 1845.
45-أبو القاسم سعد الله:المرجع السابق، ص228.
46-C.H. Dideville:Op .Cit,p21.
47-أبو القاسم سعد الله:المرجع السابق، ص228.
48-Journal des débats: 27 juillet 1845.
49-Cavaignac جنرال فرنسي ولد بباريس سنة 1802، خدم في الجزائر ساهم في سياسة الاحتلال الشامل باعتماد المجازر وحرب الإبادة، أصبح حاكم عام سنة 1848، توفي سنة 1857.أنظر:شهرزاد شلبي: ثورة واحة العامري وعلاقتها بالمقاومة الشعبية بمنطقة الزيبان في القرن 19م،مذكرة ماجستير في التاريخ،جامعة بسكرة،(2008-2009)،ص 44.
50-في 1844 خرج كافينياك في حملة عسكرية على الضفة اليسرى من الشلف متوجها إلى قبائل صبيحة (بني صبيح) التي اعتصمت بالمغارات، وكان أفرادها قد رفضوا جميع الأوامر التي صدرت إليهم بالاستسلام، وعندئذ أصدر الكولونيل أمره بمهاجمة إحدى المغارات بواسطة تفجير لغم، كما أمر بإشعال نار كبيرة أمام مدخل مغارات أخرى، وفي اليوم التالي اضطر المحاصرون الذين مات بعضهم اختناقا على أن يخرجوا.للمزيدأنظر:مصطفىالأشرف:الجزائر الأمة والمجتمع،تر حنفي بن عيسى،دار القصبة للنشر،الجزائر،2007،ص 112.
51-Derrecagaix:opcit,p459.
52-Péllissier de Reynaud:Op .Cit,p167.
53-أبو القاسم سعد الله:المرجع السابق، ص228.
54-Journal des débats: 27 juillet 1845.
55-أبو القاسم سعد الله:المرجع السابق، ص229.
56-Journal des débats: 27 juillet 1845.
57-Léonce Andre:Op .Cit,p294-295.
58-أبو القاسم سعد الله:المرجع السابق، ص229.
59- مصطفى الأشرف:المرجعالسابق،ص 112-113.

60- نفسه:ص 113.

61-Léonce Andre:Op .Cit,p295.

62-Achille Fillias:Op .Cit,p315.

63-أحمد توفيق المدني:هذه هي الجزائر،مكتبة النهضة المصرية،القاهرة،ص 91-92.

64-Journal des débats: 27 juillet 1845.

65-أبو القاسم سعد الله:المرجع السابق، ص229-230.

66- نفسه:ص 230.

67-مصطفى الأشرف:المرجع السابق، ص112.

68-Léonce Andre:Op .Cit,p296.

69-Achille Fillias:Op .Cit,p 315-316.

70-Derrecagaix:Op .Cit,p470.

71-أبو القاسم سعد الله:المرجع السابق، ص230.

72-AchilleFillias:Op .Cit,p 316.

73-Ibid,p 316.

74-Derrecagaix:Op .Cit,p457.

75-Ibid,p471-472.

76-Ibid,pp474-476.

77-مصطفى الأشرف:المرجع السابق، ص112.

78-أبو القاسم سعد الله:المرجع السابق، ص230.

79-Journal des débats: 27 juillet 1845.

80-Ibid.

81-أبو القاسم سعد الله:المرجع السابق، ص230-231.

82-C.H. Dideville:Op .Cit,p21.

83-أبو القاسم سعد الله:المرجع السابق، ص231.

84-C.H. Dideville:Op .Cit,p22.

85-Derrecagaix:Op .Cit,p457.

86-Ibid,p477-478.

87-Péllissier de Reynaud:Op .Cit,p169.

88-Journal des débats: 27 juillet 1845.